الفصل الخامس

الموالى والإسلام

رأى المثقفون من بعض رجال الموالى القائمين بالحركة أن الكيد للإسلام على الحيلة أنجع وأنه لا يمكنهم محاربته إلا بالدخول فيه ، فاعتنقوا الإسلام ظاهرا وظلوا يخلصون لعقائدهم القديمة واتخذوا وسائل كثيرة لمقاومته وللتفريق بين المؤمنين به ، وأول ما فعلوه أنهم انكبوا على دراسة اللغة والأدب والقرآن والحديث واستغلوا هذه المعرفة فوضعوا من الأحاديث على النبي ، وشرعوا يوجهون الأدب والعلم بما يريدون وترجموا كتب الزندقة مما أثر عن مانى ومزدك وغيرهما فكانت هذه المترجمات سببا لإيجاد الخلاف بين المسلمين فنشأت الفرق المتعددة .

يقول كريمر : لقد جاء هذا العنصر الجديد من الوجهة الدينية بخميرة مؤثرة جدا كانت سببا لإيجاد البدع ، وتكوين الفرق ، وبث الشك وانتشار الجدل الفلسفى ، خاصة ماجيء به من المانوية(١) .

والمانوية تقوم على المبدأ الثنوى : (من أن للعالم إلهين اثنين ، أحدهما إله النور والآخر إله الظلمة) ودعايتها للزهد المتناهى الذى فرضه مانى على الأخيار من الأتباع فى عدم الزواج ، وعدم اقتناء شيء خلا قوت يوم ولباس سنة ، وإدامة التطواف فى الدنيا ، وتحريم ذبح الحيوان ، وإيذاء الماء والنار والنبات . كذلك وضع مرسوما على

---

(١) كريمر تاريخ الثقافة جـ ٢ ص ١٦٩ ، راجع كولدتسيهر الدراسات المحمدية جـ ٢ ص ٥٣

الأتباع المحسنين ظنهم والمختلطين بالأسباب الدنيوية بالتصدق بعشر الملك وصوم سبع العمر ، والاقتصار على امرأة واحدة وأرجع ذلك إلى احتقار المادة التى مصدرها الظلمة ، والظلمة محتقرة . فما صدر عنها فهو محتقر(١) . وزاد ابن النديم أن مانى فرض عليهم تعلم العلل والسحر والقيام بمهمتين ، هما الشك فى الدين والاسترخاء والتوانى فى العمل(٢) . ويقول نيبرغ : كانت هذه الحركة فى الشرق أخطر أعداء الإسلام ، فإن من طبيعة المانوية أن تتدخل فى غيرها من الأديان وتمتزج بها وتتحد معها كى تمزق وحدتها من الداخل بما تبذره من أصول الخلاف والانشقاق(٣) .

ومثل المانوية المزدكية حيث تشتركان فى الأثنينية ، وتنفرد المزدكية بالإباحة المطلقة فى الأموال والنساء . وقد انتشر هذا المبدأ فى بلاد الفرس فقاومها الملوك الساسانيون مقاومة شديدة . وثبتت قدمها فى العراق سرا(٤) ويكاد هذان المبدآن — المزدكية والمانوية — يكونان مصدرين مهمين للفرق التى ابتعدت عن الإسلام ، وغذاء للزنادقة المشهورين الذين أسسوا فرقهم لإيجاد الخلاف وإضعاف تلك العقيدة التى انبعثت من قلب الجزيرة . بل كان هذان المبدآن عنصرين قويين منهما يستمد الشعراء المعنيين بالمقاومة قوة شعرهم ومادة خيالهم .

وقد حاول الخلفاء العباسيون أن يقضوا على الزندقة فلم يستطيعوا وأول من وقف لها بالمرصاد الخليفة المهدى ، فحكم على بشار ابن برد بالموت . وأوصى ولده الهادى ألا يتوانى عن استئصال

---

(١) البيرونى آثار ص ٢١١ . (٢) فهرست ص ٣٣٣ . (٣) نيبرغ فى مقاله عن الكفاح بين الإسلام والمانوية فى مجلة O. L. Z, B 32, 4S7. 1929

(٤) كريمر — ديوان أبى نواس ص ، ١١ كريمر ، تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٧٠ .

البدع الجديدة ، وقضى الرشيد على أسرة البرامكة ، وحكم المعتصم على الأفشين بالموت ، وأعدم المقتدر الحلاج ، ولكن لم يتمكن هؤلاء الخلفاء من الوقوف دون انتشارها ، فقد عمت إيران وتغلغلت فى العراق[١]

كانت هذه الفرق التى نجمت عن المانوية والمزدكية والسبأية وما أبدعه خيال القائمين بالحركة فى جملتها وتفصيلها واختلاف أشكالها وتباين أزمان القائمين بها وتنوع وسائلهم تهدف إلى القضاء على الدولة العباسية لإقامة دولة جديدة تعيد مجد الأكاسرة .

ولعل ذكر بعض الأمثلة من الفرق التى نشأت ونشر سير بعض الشخصيات التى وقفت موقف المعارض العتيد يلقى شعاعا قويا على ما كان يجرى فى هذه الفترة من المؤامرات التى انهار بها الشرق الأوسط .

أتباع أبى مسلم الخراسانى وفرقة الخرمية[١]

قام أبو مسلم الخراسانى بحركة ضد الدولة العباسية كما ذكرنا آنفا ، فقضى عليه أبو جعفر المنصور ، ويظهر أن أتباعه لم يجدوا الوقت مناسبا لمقابلة السيف بالسيف فعمدوا إلى نشر عقيدة تناسخ الأرواح ، وادعوا أن أبا مسلم يؤمن بها ، وأن روح آدم حلت فى عثمان بن نهيك (رئيس حرس المنصور) ، وأن أبا جعفر المنصور ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم ، وأنهم يطلبون رؤيته . فلما طلع عليهم عثمان ليقتلهم قتلوه بسهم ونجا المنصور من حركتهم هذه التى أرادوا بها الانتقام لسيدهم[٢] ، ثم ظهر رجل يدعى إسحق ، دعا الناس إلى أبى مسلم وزعم أنه نبى أرسله زرادشت وأنه لا يزال حيا لم يمت[٣] .

---

(١) راجع كريمر تاريخ الثقافة جـ ٢ ص ١٧٠ وما بعدها .

(٢) ط جـ ١ ص ١٣٠

(٣) الفهرست ٣٤٤ . فان فلوتن ١٣١ .

ونشأت بعد قتل أبي مسلم فرقة الخرمية التي يمكن إرجاع تسميتها إلى قرية خرم قرب أردبيل . وتسمى أيضا بالمسلمية . انقسمت فرقتين — فرقة تقول بإمامة أبي مسلم « وأنه لم يمت ولن يموت » حتى يظهر فيملأ الأرض قسطاً وعدلا . وفرقة قطعت بموته « وقالت بإمامة فاطمة ابنته » وتدعى هذه الفرقة الفاطمية . وحاصل تعاليمها راجع إلى رفع التكليف ، وتسليط الناس على اتباع الشهوات من المباحات والمحرمات ، وامتد بها الزمن وكثر أتباعها عام (٣٣٢هـ) (٩٤٣ — ٩٤٤م) ومن أبرز أتباعها بابك الخرمي خرج على المعتصم وشغل الدولة العباسية حيناً من الدهر (١)

الراوندية

وظهر شخص يسمى هاشم بن حكيم ويعرف بالمقنع الخراساني وهو من أخلص أتباع الراوندية ومؤسس هذه الفرقة ، يدعى الأبلق زعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم حلت في علي ثم في الأئمة واحداً بعد واحد إلى إبراهيم بن محمد سبط العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وتبعه كثير وكان كل رجل من أتباعه يدعو الجماعة إلى منزله فيطعمهم ويسقيهم ويبيح له حرمة الإسلام ، وخرج في جماعة منهم على الناس ينادون أبا جعفر المنصور — أنت أنت يعنون بذلك أنت ربنا وإلهنا (٢) وبدأ تعاليمه قرب مرو . وتبرقع بحرير أخضر ، وزعم أن الله تحول إلى صورة آدم ، ومن صورة آدم إلى صورة نوح ، ثم إلى صورة الأنبياء واحداً بعد واحد ، حتى حصل في صورة أبي مسلم ثم من أبي مسلم إليه فتبعه كثير (٣) .

---

(١) المسعودي ج ٦ ص ١٧٧ . (٢) ط ٣ ص ٤١٨ ، الإسلام ، مجلة ص ٤٩٤ مولر . طان فلوتن ص ٩٧ ، نولدكه ص ١٢٥ ، نصوص شرقية .

(٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٣ — ٥٤ كريمر تأريخ الآراء السائدة ص ٧٤ .

ثم قال إنه إنما تجسد لكى يراه الناس إذ لا يمكن رؤيته قبل ذلك . وعبر نهر جيحون إلى نواح كثيرة ، وشرع لهم جميع ما أتى به مزدك ، وقتل من خالفه وثار على المهدى ودوخ جيوشه انتقاما لأبى مسلم ولدولة الأكاسرة التى هد أركانها العرب . ووبقى ثائراً أربع عشرة سنة حتى حوصر وقتل سنة تسع وستين ومائة للهجرة . ولما أحيط به أحرق جسمه ظنا منه أن جسمه سوف يتلاشى فيتحقق أصحابه قوله ، فاحترق ولم يتأت له ما أراد من التلاشى . بل وجد فى التنور وقطع رأسه وأرسل إلى الخليفة وصار له تبعة بما وراء النهر يدينون بدينه مستخفين منتحلين فى الظاهر للإسلام . وقد ترجمت أخباره من الفارسية إلى العربية ويذكر البيرونى أنه استقصاها فى أخبار المبيضة والقرامطة (١) .

الباطنية والقرامطة

لا أريد أن أفصل الحديث فى الباطنية والقرامطة تفصيلا يبين منشأها وتطورها التاريخى وما أصابها فى أيامها التى تعاقبت عليها وما انتهت إليه من النتائج فقد كتبت فى شأنها كتب مفصلة تقلبت فيها الآراء اختلافاً واتفاقاً ، وحسبى من أمرها أن أبين مكانتها فى هذا الصراع وأثرها القوى فى توجيه المجتمع الإسلامى توجيهاً مضللا .

إنى أرى أنهما فرقة واحدة ذات هدف واحد فى سبل مختلفة وأنهما امتداد للحركات التى قام بها أعداء الإسلام من الموالى واليهودية فقد كان الإسلام كارثة على هؤلاء الخصوم حيث هدم آراءهم وأزال معالم سلطانهم فلم تهدأ لهم ثائرة منذ أن رأوا هذه العقيدة تزداد شوكة وقوة تحطم أركان الظلم ، وتزيل معالم الفساد وتقيم دولة الخلافة على قواعد العدل والإخاء والمساواة ، فقد فعل اليهود فعلتهم فى بث الفرقة فى إثارة الفتن

(١) الآثار الباقية ص ٢١١ .

زمن النبوة وتهيئوا للعجلى من الأمور فى أيام الخلافة ، فساهم كعب الأحبار مع المولى الهرمزان فى اغتيال الخليفة الثانى وأقام عبد الله بن سبأ الموالى فى العالم الإسلامى وأقعدهم بالشغب على الخليفة الثالث حتى قتله ، وأطلقها فكرة يهودية مبتدعة تثير الشك وتقتلع عقيدة التوحيد من جذورها حين دعا إلى تأليه الخليفة الرابع ، وزاد أتباعه أن أشاعوا فكرة التجسيم والتشبيه ، وكانت آراؤه مصدراً لبعث العيسوية الأصفهانية التى كانت تقول بصحة نبوة عيسى ومحمد بالنسبة لشعبيهما فقط ، أى أن محمداً رسول الله إلى العرب لا إلى العجم ولا إلى بنى إسرائيل وأن عيسى مرسل إلى شعبه والتى قلدها من بعد ذلك الإسماعليون فى إيجاد العقيدة العامة ، كذلك كانت آراؤه مصدر الغلو فى العالم الإسلامى ، ونشأت عن ذلك الفرق التى ألهت أبا جعفر المنصور وألهت أبا مسلم الخراسانى بعد مقتله وشاعت فكرة العصمة من الخطأ ، وظهر مبدأ المعرفة المطلقة حيث يحيط الإمام بالعلوم ما ظهر منها وما بطن ، وصحب ذلك كله مبدأ الحلول وتناسخ الأرواح .

أخذت هذه الآراء تتجمع شيئاً فشيئاً وتتلاءم حتى تركزت ونشأت عنها هذه الفرقة العاتية فرقة الباطنية التى أخرج آراءها ووجه الناس إليها ميمون القداح الشنوى الديصانى خليفة أبى مسلم الخراسانى ومستجيب ابن سبأ اليهودى .

كان هذا المولى ذكياً عالماً فأسس هذه الفرقة على أسس قوية مبنية على دراساته التى اكتسبها من مدارسة الفلسفة اليونانية وتعاليم مزدك وزرادشت ومانى وغير ذلك يضاف إليها ماجاء فى الكتب السماوية . اشتد إلى ما أفادة من هذا كله فهى لنفسه خطة محكمة حفها بالسرية القوية ظاهرها حب آل البيت والدعوة لهم وباطنها إعادة دولة الأكاسرة .

شرع يهيء دعاته ليبثوا آراءه وعقيدته لتحقيق خطته فكان يختارهم

اختياراً يتوخى فيه الذكاء والذلاقة وقوة العارضة وكتمان السر والقدرة على إغراء الناس وجلبهم إلى لوائه وكان هؤلاء يستترون بثياب كثيرة مختلفة تارة بالصوفية والشعوذة والتقشف والزهد والاستجداء والتجارة وطوراً يلبسون ثياب النساء إذا أعوزهم الأمر ، وكان من أقوى خصائصهم قوة العارضة ومتانة الحجة ، ومعرفتهم ميول الناس ورغباتهم ، لا يخالفون أحداً وغاية ما عندهم أن يروا ميوله ويتحسسوا مغامز الضعف فيه حتى إذا وجدوا ذلك غمزوه فيها .

وكان الناس فى ذلك الوقت من السذاجة ما يجعلهم يتبعون من يحقق لهم رغبة أو يجيب لهم طلبه ورجال القداح من هذا الطراز ، أذكياء نابهون مدربون .

ولما آل الأمر إلى ابنه عبد الله قام به على أتمه ، كان يفوق أباه ذكاء ومعرفة فوضع مشروع الدعوة على أسس متينة جعلها متدرجة وقسم المجتمع على أساس مبلغ أهله من العلم والمعرفة والمكانة ، فالعامة لهم درجة ، والذين يلونهم رفعة لهم درجة ، وهكذا تتصاعد الدرجات حتى تبلغ الدرجة السابعة حيث تتكشف مبادىء الحركة كلها أمام المنتسب .

وعبد الله هذا هو الذى وضع يده بيد حمدان قرمط الثائر الثانى الذى كان يستمد مبادى ثورته من آثار آبائه الأولين الذين ألهو أبا جعفر المنصور وأبا مسلم الخراسانى الذى كان يريد أن يعيد دولة آبائه بالسيف ففشل وعلم أتباعه أن السيف لا يجدى فى تحطيم عقيدة الإسلام ولن يجدى فى ذلك إلا إثارة الشك ، إن إثارة الفتن من الضعفاء بين الأقوياء أنفع من السيف الضعيف لا سيما الإسلام لا يزال فى عنفوان شبابه ، لقى حمدان قرمط عبد الله بن ميمون القداح لقاء موفقاً مكتمل الهدف فوضع أحدهما يده بيد الآخر ومشت دعوة القداحين القوية جنباً إلى

جنب مع دعوة قرمط تشد أزرها وتطعمها بمبادىء جديدة مبنية على التجارب . لقد خلفت قتلة أبى مسلم وراءها كثيراً من الناقمين ، تفرقوا فرقا وأحزاباً لكل رأى ووجهة فى الانتقام ، فاستطاع عبد الله بن ميمون أن يلم شعثها ويوجهها الوجهة التامة ، فقويت بذلك شوكة دعوته واستمرت تمشى مستندة إلى أسس متينة وازدادت قوة فى إقناعه أتباعه بنظرية الإمام المستور الذى يحيط بكل شىء ، وهو مصدر العلم والعرفان ولا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق حجته عبد الله بن ميمون القداح فنال بهذه الدعوة مكانة ممتازة جعلته يسيطر على الدعاة والأتباع لاعتقادهم أنه هو الباب الذى يلجونه إلى إمامهم ، وتطورت نظرية الإمام المستور والحجة إلى نظرية الإمام المستودع والإمام المستقر ، ومعنى ذلك أن الإمام المستودع تكون الإمامة وديعة عنده يؤديها إلى الإمام المستقر ولا يؤديها إلى غيره أما الإمام المستقر فله الحق أن يهبها من يشاء لأنه محيط بكل شىء وأن عنده أسرار المعرفة .

وأياً كان الشأن فإن هذه النظرية من مستلزمات الحركة استغلت استغلالا كبيراً لفائدة القداحين ، فقد مثلوا دور الإمام المستودع ، وتعرضوا للأخطار لتكون الحركة دائما بأيديهم ، أما الإمام المستقر فهو رمز ودرع للحركة وأمل للأتباع من جميع الأقوام والشعوب لأن حب أهل البيت مغروس فى النفوس لذلك يتبعون من يدعو لهم ، والحقيقة التى لا مرية فيها ، أنه ليس للإمام المستقر من الأمر شىء . ولما ضعفت الدولة العباسية وقويت الحركة الباطنية ، وضعف شأن العلويين ، بدت للوجود فكرة جديدة ، وهى فكرة كانت عنصراً قوياً فى بناء هذه الحركة ، تلك هى البنوة الروحية . التى جعلوها فى دعايتهم وتعاليمهم تفوق فى بعض الأحيان البنوة الجسمانية ورأينا الإمام المستور « الحسين ابن أحمد » ينزل لسعيد بن الحسين بن عبد الله القداح عن الإمامة ويتركها

وديعة عنده كى ينزل عنها لابنه بعد وفاته ، فكانت هذه الوديعة فى توجيهها وجهة أخرى مائلة عن قواعدها الأصيلة أول نقطة تفرقت بها السبل بين القرامطة والقداحين فى دعواهم الباطنيةووجد القرامطة الذين يؤمنون بظهور الإمام المستور خروجاً من القداحين على الدعوة ، وصعب عليهم أن يروا إماماً من غير أهل البيت ، وثارت بين أهل الدعوة ثائرات الفتن ، واختفى حمدان قرمط ، وقيل قتل ، وهرب سعيد بن الحسين إلى المغرب . وكان هروبه بناء على إلحاح من داعيته الوفى أبى عبد الله الذى دوخ الأغالبة كما يأتى تفصيل ذلك فى آخر الفصل .

وصل عبيد الله إلى المغرب وحبس بسجلماسه عاصمة بنى مدرار فى المغرب الأقصى وكان داعيته على اتصال به .

وبينما كان دعاة القداحين يضربون فى الأرض يتسترون فى الدعوة ويستميلون الناس إلى حضرتهم ويجمعون الأنصار فى بلاد الشام والعراق وخراسان والبحرين كانت فتن القرامطة تملأ أرجاء المملكة ، وكانوا يشنون حملاتهم على مراكز الضعف فيها ، وكثيراً ما كانت جيوش الخليفة تنهزم أمام هذه الحملات وكان كل همهم إسقاط الدولة والقضاء عليها ، وإقامة دولة فارسية تأتى على العقيدة الإسلامية من جذورها ، ولقد أغاروا على مكة ودخلوها واقتلعوا الحجر الأسود الذى وضعه محمد صلى الله عليه وسلم بيده وجعله رمزاً لوحدة الأمة واحتفظوا به مدة عشرين عاماً وهذا دليل واضح أن الحركة كانت موجهة إلى العقيدة والسلطان .

ومجمل القول أن أصول هذه الفرقة التى بنوا عليها دعوتهم : أن الإمام عندهم مصدر العلم والمعرفة يحيط بما ظهر وما بطن ، لا يخطىء ، ويرجع ذلك إلى مبدأ التأليه الذى أخذت به الفرق المختلفة التى تشكلت فى أول

الحركة . ولقد نتج عن ذلك نتيجتان إحداهما استطاعة الإمام التصرف فى العقيدة كما يشاء ، لأنه أعرف الناس وأكثرهم إحاطة بها ومن ثم عمدوا إلى آيات القرآن يؤولونها كيفما تحلو لهم ، فلما وضعوا مبدأ الاستيداع والاستقرار مثلا ، قالوا لقد جاء هذا فى القرآن بقوله تعالى « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » وقوله تعالى : « فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » وقالوا : إن الشرائع تلزم العامة دون الخاصة ، فإذا صار الرجل من عارفيهم ومحققيهم وموحديهم رفعوا عنه الواجبات ، وأباحوا له المحظورات ، وأولوا كثيراً من أصول الإسلام على حسب ما ترمى إليه أهدافهم ، فهم يؤولون الصلوات الخمس بأنها معرفة أسرارهم ، وصيام رمضان يراد به كتمان أسرارهم أما الحج فلا يراد به إلا السفر إلى شيوخهم. لقد كان مبدأ المعرفة التى هى إشراق إلهى خطراً جدا فقد وصل به الغلو إلى مبدأ الحلول أى حلول الإله فى روح إمامهم وقد ادعى ذلك كثير من غلاة الباطنية .

واحتضنت الباطنية آراء مزدك فى شيوعية الأموال ، وزاد بعض الناقلين إباحة النساء ، وعزوا ذلك إلى ما وصل إليهم عن خرما زوجة مزدك ومن اتبعها .

ومهما يكن فإن المبدأين لقيا رواجاً فى فارس قبل مجىء الإسلام ، ثم استغلهما أعداء الإسلام أيام الدولة الأموية ، فلما استقر ملك بنى العباس وجدنا هذه المبادئ شائعة قوية الشيوع بين الزنادقة والشعراء والأدباء ، وبين جماعة الحركة أتباع أبى مسلم الخراسانى وابنته فاطمة وبابك الخرمى . ولما كانت هذه الحركة الهدامة التى تحاول قلب الدول وتبديل العقائد تحتاج إلى مال يغذيها رأينا حمدان قرمط يبتدع نظاما ماليا شيوعيا فيضع الضرائب على أتباعه المستجيبين له ، يضع ضريبة الفطرة

ومقدارها درهم واحد على كل قرمطى . ثم ضريبة الهجرة ومقدارها دينار ، وضريبة البلغة ومقدارها سبعة دنانير ، وضريبة الخمس وهى أن يدفع المستجيب خمس ما يملك وضريبة الألفة وهى أن يدفع القرمطى جميع ما يملك ، وكانت تجمع هذه الأموال عند رجل واحد ، والأتباع جميعهم فيها سواسية كأسنان المشط ، وقد سميت هذه الضريبة الأخيرة ضريبة الألفة لأنها ألفت بين قلوب الجميع وجعلتهم فى العقيدة إخوانا . وكان حمدان قرمط يتلو عليهم عند جمعها قول الله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

وكان يمنيهم ويعدهم أن الأرض جميعها ستكون لهم دون غيرهم ، ولذلك فإنهم لا يحتاجون إلى أموال يكنزونها فى بيوتهم .

ومن أهم العناصر التى قامت عليها الدعوة الباطنية مبدأ العقيدة العامة ، ذلك أنهم لأجل أن يجتذبوا الناس جميعهم إليهم ، كانوا يدعون لعقيدة عامة تضم العقائد كلها ، وكان عبد الله بن ميمون القداح أول واضع لهذا المبدأ ، وقد وجد بعض أتباع الأديان السماوية والمزدكيون وأتباع زرادشت بعض ما تصبو إليه نفوسهم فى هذا المعتقد العام ، فاتبعوه ، ودخل فى روع الأتباع أن عبد الله موطن لحلول زرادشت ومانى ومزدك وموسى وعيسى ومحمد يرومون من وراء ذلك تحبيب الناس لهذه الدعوة وشرعوا يعدونهم ويمنونهم ويظهرون لكل فريق ما يوائم معتقده .

أفسحت هذه المبادئ لرؤساء الباطنية أن يؤولوا الكتب السماوية والعقائد بما يتفق مع هذا التعميم وذكروا أن للقرآن معنى ظاهراً وآخر باطناً ، وأن للشريعة ظاهراً وباطناً ، وأن الباطن الحقيقى الذى هو أصلها لا يعرفه إلا الإمام الباطنى الذى يفيض الله عليه نور المعرفة ، فتنكشف له الحقائق ، وأولوا الحديث والتوراة والإنجيل ، وما ورد فى المعتقدات الأخرى للأمم والشعوب .

وساعدهم على هذه الآراء جماعات العلماء الذين اتخذوا العلم والأدب ستاراً لتنفيذ هذه السياسة وطفقوا يبثون آراءهم للخاصة والعامة ، ومن هؤلاء إخوان الصفا وغيرهم من جماعات الزنادقة . ومن الشخصيات القوية التى أعانت على هدم العقيدة الإسلامية ومقاومتها وأثرت تأثيراً شديداً : ابن المقفع والحلاج ، وحيدر بن كاووس وسنذكر نبذاً توضح اتجاه كل منهم فى هذا الفصل .

هذه الباطنية ثورة عارمة من الموالى قاموا بها ضد أبناء الجزيرة العربية ، الغرض منها إعادة المجوسية الأولى والقضاء على عقيدة التوحيد . سارت بقوة واتجهت إلى شمال أفريقيا يحدوها أبو عبد الله الذى دوخ دولة الأغالبة ، فلما تم له الاستيلاء على ملكهم عام ٢٩٦ هـ سار إلى إمامه المسجون بسجلماسة ، فأخرجه من السجن ، وجاء به من الغربة ، وأجلسه على العرش فى تونس .

وبذلك قامت قواعد أول خلافة للموالى عام ٢٩٧ هـ على أساس من الأحكام والتستر وراء الدين ومن هذا المركز القوى أخذوا يمدون دعوتهم وينازعون قوتين اثنتين : الدولة العباسية فى آسيا للقضاء عليها والدولة الأموية فى الأندلس[١] للوصول إلى زعامة العالم الإسلامى . ولما استشرى سلطانهم وكثر عديد جيوشهم وعدتهم زحفوا على مصر ففتحوها على يد قائدهم جوهر الصقلى عام ٣٥٨ ووضعوا أساس القاهرة والجامع الأزهر ، وبدأت حركة علمية جديدة يبتغون من ورائها بث

---

(١) عندما أعلن الفاطميون خلافتهم رأى الأمير الأموى فى الأندلس عبد الرحمن الثالث أنه أحق بها منهم بعد أن ضعف الخليفة العباسى فأعلن خلافته واتخذ لنفسه لقب الناصر لدين الله عام ٣١٧ هـ/٩٢٩ وشرع يقاوم الفاطميين ويحول دون توسعهم ، وقد أرسلوا عليه أسطولا فأجابهم بأشد منه وضرب شواطىء أفريقا الشمالية .

آرائهم وأفكارهم ، ولما كان الباطنيون لا يتشددون بالدعوة مع المدعوين كما ذكرنا آنفاً ويتركون الشعرة لا تنقطع كي ينالوا مآربهم أخذوا يجلبون العلماء والأدباء من أقطار العالم الإسلامي يغرونهم بالدعوة ويستغلونهم لتقويتها ، ولكن الكثرة الغالبة أثرت عليهم ولم تفسح لهم مجالا للوصول إلى ما يبتغون ، لقد خرج القداحون على الدعوة بأخذهم الإمامة وبتساهلهم فأغاظ ذلك القرامطة فانفصل هؤلاء عنهم وغزوا مصر فعلا للقضاء على الفاطميين ، ولولا دراية المعز وحسن تدبيره الذي استطاع إرجاعهم وهزمهم لكان للباطنية تاريخ آخر . استمرت حكومتهم في إرساء قواعد الملك بالقاهرة ومصر حتى أيام الحاكم بأمر الله الذي شذ عنهم وعاد فخضع لأصول الباطنية الأولى فادعى الألوهية واستجاب للغلاة من الدعاة الذين وصلوا إليه من فارس والمغرب وقد أثار ادعاءه هذا كثيراً من الذين لا يؤمنون بالباطنية واضطربت البلاد وحدثت أحداث وقتل الحاكم ولم يعثر له على أثر ، فزعم أتباعه أنه اختفى وسوف يعود ولا يزال فريق من أتباعه يعتقدون بذلك . ظلت البلاد من بعده تنتقل من محنة إلى محنة إلى أن ضعفت دولتهم وقامت دولة الأيوبيين ، أسسها صلاح الدين الأيوبي ابن أخي شيركوه الذي عين وزيراً للخليفة الفاطمي من قبل نور الدين السلجوقي الذي كان يخشى على مصر من الصليبيين .

ثم صارت الوزارة من بعد شيركوه لصلاح الدين الذي صفى حساب الدولة الفاطمية ، وقلب تعاليمها وجعل الفقه الشافعي يدرس في الأزهر مكان فقههم ، وبذلك اتجه الأزهر اتجاهاً آخر غير اتجاهه الأول ولا يزال على ذلك إلى اليوم ويرجع الفضل له في حفظ التراث العربي الإسلامي إلى يومنا هذا .

١ — ابن المقفع

روزبة بن داذويه ، مولى آل الأهتم فى البصرة ، كتب لداود بن عمر بن هبيرة ، أخى يزيد بن عمر والى العراق لمروان الثانى (٧٤٤ - ٧٥٠) آخر خلفاء بنى أمية [١] ولا نعرف زمن تسميته عبد الله وكل الذى نعرفه أنه بقى أمينا لعقيدته المجوسية إلى زمن الدولة العباسية حيث أسلم على يد عيسى بن على عم المنصور [٢]

كان عبد الله كاتباً بليغاً وسياسياً ماهراً ، لفت أسلوبه الكتابى نظر الخليفة أبى جعفر المنصور (٧٥٤ — ٧٥٥ م) فقربه إليه وطلب منه ترجمة كثير من الكتب عن الفارسية فقام ابن المقفع بذلك ، وهو أول من ترجم كتاب كليلة ودمنة ، وكتب أرسطو المنطقية عن الفهلوية ، وترجم من كتب التاريخ الفارسية كتاب التاج فى سيرة أنو شروان ، ومن كتب العقائد كتاب مزدك ، وألف كتباً قيمة فى الأدب والسياسة منها كتاب الأدب الكبير والأدب الصغير ورسالة الصحابة يعنى بذلك صحابة الملوك ومن يقربونهم إليهم . وفى هذه الرسالة ظهرت مواهب ابن المقفع فى السياسة والإدارة وصلاحية الحكم [٣] ونال خطوة فى البلاط ، غير أن الخليفة تغير فجأة فأمر بقتله ، ودارت حول هذا القتل الأقاويل ، واشتبكت الروايات ، وأحيطت بشىء من الغموض وقليل من أحاديث خرافة وكان أول هذه الروايات قبولا عند الناس : أن ابن المقفع تشدد فى كتابة عهد الأمان بين المنصور وبين عمه عبد الله بن على فحفظها عليه المنصور . وثانى الروايات أن ابن المقفع قتل لعداوة شخصية بينه وبين سفيان بن معاوية والى البصرة . ورواية ثالثة تعزو سبب قتله إلى اتهامه بالزندقة ، فإنه لما

---

(١) فهرست ص ١١٨ ، جهشيارى ص ١١٧ .

(٢) فهرست ١١٨ ، ابن خلكان ص ١٨٨ .

(١) بروكلمن ملحق جـ ١ ص ٢٣٤ — ٢٣٧ ، راجع رسائل البلغاء .

قتله سفيان قال له : « والله يا ابن الزنديقة لأحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة[١] » . وأضعف هـــذه الروايات ما ترجع قتله إلى العداوة الشخصية ، وتليها فى الضعف رواية كتابة العهد ، فإن باستطاعة المنصور أن يجعل ابن المقفع يكتب كما يريد المملى لا كما يشاء الكاتب ، والراجح أن بن المقفع كان زنديقاً لا يؤمن بالله ولا يقيم وزنا لدين محمد بن عبدالله . وقد كشف القناع عن ذلك الأستاذ جويدى الإيطالى فى الكتاب الذي نشره أخيراً لمؤلفه إبراهيم بن القاسم ، وهو كتاب « الرد على اللعين عبد الله بن المقفع » ، وفى هذا الكتاب اقتطف إبراهيم فقرات من كتاب معارضة ابن المقفع للقرآن ، مقتطفات لا رابطة بينها جاء بها ليرد عليها ، نذكرها كما جاءت فى الكتاب وهى :

بسم النور الرحمن الرحيم — أما بعد فتعالى النور الملك ، العظيم الذى بعظمته وحكمته ونوره عرفه أولياؤه والذى اضطرت عظمته أعداءه الجاهلين له والعامين عنه إلى تعظيمه ، ومسبح ومقدس النور ، الذى من جهله لم يعرف شيئا غيره . ومن شك فيه لم يتيقن بشىء بعده و . . . انقلب عليه خلقه الذين هم عمل يديه ، ودعا كلمته ، ونفخة روحه ، فعادوه وسبوه وآسفوه . وأنشأ يقاتل بعضهم فى الأرض ويحترس من بعضهم فى السماء بمقاذفة النجوم ويبعث لمقاتلتهم ملائكته وجنوده و . . . وأنزل ملائكته فإذا غلبوا عدوا قال أنا غلبته ، أو غلب له ولىٌّ ، قال أنا ابتليته . و . . . فقتلت أعداؤه أنبياءه ورسله . و . . .

وأجّل عدوه إلى يوم يبعثون .

ولا يغلب أحداً إلا بالخيل والسلاح . و . . .

وهكذا يقتطف ابن القاسم من كتاب ابن المقفع مقتطفات ويرد عليها رداً مسجوعا يسفه به آراء ابن المقفع ويجعل كتابه هذا طعنا فى الدين .

---

(١) جهشيارى ص ١٠٧ .

ليت ابن القاسم ذكر كلام ابن المقفع كله ورد عليه بمجموعه ، وفسح المجال لغيره أن يرد عليه ، ولو فعل ذلك لكان لنا مجال واسع فى معرفة ذلك الجدل القوى الذى كان يثار بين الملحدين والمسلمين (١) .

إنك ترى ابن المقفع فى معارضته يبدأ رسالته بطراز جديد للبسملة ثم يشرع يمدح النور ، وأنه منبع الخير والمعرفة ، ويهاجم الإسلام من حيث إنه دين والقرآن من حيث إنه منزل على محمد ، خاصة فى صورة الجن ، وإحراقهم بالشهب ، ثم يستهزىء بالله (جل وعلا) . حيث لم يجعل النصر للمسلمين إلا بالسيف وعلى ظهور الخيل ، ويظهر جور الله وظلمه ، — من ذلك قتل أنبيائه ورسله ، وعدم حمايتهم وتأخير معاقبة الظالمين إلى يوم القيامة ، وأنه يسلط الأمراض والمصائب على الناس ، ويشعر بالغضب والحزن والألم لأنه يرسل زبانيته يوم القيامة ليعذبوا الخارجين على الإسلام . ولا يقف ابن المقفع عند هذا الحد بل يتهكم بالنبى صلى الله عليه وسلم .

ويؤيد القول فى زندقة ابن المقفع ما جاء عن المهدى أنه قال : « ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع (٢) . » وجاء فى المسعودى أن المهدى قد أمعن فى قتل الملحدين والذاهبين عن الدين لظهورهم فى أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته لما انتشر من كتب مانى وابن ديصان وموقيون وما نقله ابن المقفع وغيره عن الفارسية والفهلوية (٣) .

أما ما يخص الكتاب فإن الأستاذ أحمد أمين يشك فى نسبته لابن المقفع ، ويشك أيضا فى نسبة الرد إلى ابن القاسم من الناحية الفنية . لأنه يرى أن ابن القاسم عاش فى النصف الأول من القرن الثالث والكتاب كله من أوله إلى آخره مسجوع متكلف السجع ، وأن هذا العصر عصر

---

(١) اقرأ مجلة (O. L. Z No 6, 1929, 430) (٢) ابن خلكان ص ١٨٨

(٣) المسعودى مروج ج ٧ ص ٢٩٤ وما بعدها .

الجاحظ لم يتكلف فيه السجع ولم تؤلف فيه كتب مسجوعة[١] أما شكه فى نسبته لابن المقفع فلأن الأسلوب غير الأسلوب المعروف الذى يراه القارىء فى كتاب الأدب الكبير والأدب الصغير ، ورسالة الصحابة ، وإنى لأرى هذا الرأى ، فإن الفقرات التى أوردها ابن القاسم لم تكن مسجوعة إلا فى القليل منها ، وأن الفكرة التى تقول إن ابن المقفع عارض القرآن بهذه الرسالة بعيدة كل البعد . فان الاتجاه الذى اتجهه ابن المقفع لم يكن معارضة بل كان مهاجمة ونقداً . كما يظهر من هذه الفقرات التى اقتطف ابن القاسم بعضها وترك جلها «غفر الله له ذنبه» وأن أسلوب هذه الفقرات أسلوب لا يختلف عن أسلوب الأدب الكبير والأدب الصغير والوحدة فيها واضحة ، لا تخفى على النابه .

أما السجع الذى ورد فى رد ابن القاسم فهو متكلف ظاهر التكلف ، وقد تقصد ذلك لأنه حاول أن يظهر رده بمظهر الأديب القوى الذى يمكنه أن يأتى بسجع مثل سجع القرآن فأخطأه الحظ ، ومع ذلك فإننى أقول للأستاذ أحمد أمين ، متى كان السجع مختصا بعصر دون عصر ؟ إنك تجد فى القرآن نثراً مسجوعا ونثراً مرسلا ، وتجد فى خطب الحجاج وزياد كلاما موزونا .

وكان المختار الثقفى يسجع فى كلامه[٢] فقد قال ابن الغرق للحجاج : إن المختار يسجع وذكر له من عباراته ، فضحك . وقال كان المختار يقول — « ورافعة ذيلها ، وصايحة ويلها بدجلة أو حولها » .

وقد يؤيد ماقلته عن ابن القاسم الكتاب الذى يعزى إليه فى الرد على النصارى وهو كتاب مسجوع متكلف السجع لا يختلف عن كتابه فى الرد على ابن المقفع[٣] .

---

(١) ضحى الإسلام ج ١ ص ٢٢٦ . (٢) البلاذرى أنساب الأشراف ص ٢١٦ .
(٣) برجشتراسر اسلاميكا ج ٤ ص ٢٩٩ سنة ١٩٣١

ومن هنا نجد أن ابن المقفع لاقى حتفه فى تهمة الزندقة تبعاً للحركة القوية التى قام بها . وأن كلمة سفيان : « والله يا ابن الزنديقة لأحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة » كانت مطوية على قسط كبير من الحقيقة ، وإذا قرأنا ترجمة حياة ابن الراوندى فى كتاب الانتصار لابن الخياط نجد أن ابن الراوندى يسير تحت الأفق الذى سار تحته ابن المقفع ، ويمشى إلى الغاية التى مشى إليها .

٢ — الحلاج

اختلف علماء العرب وعلماء الاستشراق فى هذه الشخصية اختلافا كبيرا ، وكتب عنه فى السنوات الأخيرة المستشرق ما سينيون كتابا ضخما ، سماه شهادة الحلاج ، عالج فيه ناحية التصوف ولم يتعرض للناحية السياسية ، كأن الحلاج لم يكن له علاقة بالقرامطة ، وكأن الحلاج لم يكن له شأن فى السياسة . وهذا مالا أراه ! ويشاركنى المستشرق هارتمن فى الرأى : فإنه لايبرىء الحلاج فى حركته من شائبة السياسة[١] ولقد عده المعرى من الزنادقة وقال إنه مشعوذ[٢] وقال عنه ابن النديم : إنه سياسى يروم قلب الدول [٣] ويقول ابن خلكان إنه كانت له جمعية سرية فى سوس حيث ألقى القبض عليه هناك [٤] . ويقول البيرونى إنه كان يدعو للمهدى أولا ، وزعم أنه يخرج من الطالقان بالديلم ، فأخذ وأدخل مدينة السلام مشهراً وحبس فاحتال حتى تخلص من السجن[٥] .

وجاء فى رحلة ابن فضلان التى نشرها الأستاذ أحمد زكى الوليدى .

---

(١) Hartman' O . L . Z . 205 ' 1925

(٢) رسالة الغفران ص ١٥٠ ، ١٥٤ . (٣) الفهرست ص ١٩٠ — ١٩٣ .

(٤) ابن خلكان ص ١٨٤ — البيرونى . آثار ص ٢١١ .

(٥) الآثار الباقية ص ٢١١ — ٢١٢ .

لقد كان الخليفة المقتدر يخشاه لأن دعوته انتشرت بين حاشية المقتدر فانخدع به كثير .

وزاد البيرونى فى كتابه أنه كان رجلا مشعبذا ، ومتصنعا مازجا نفسه بكل إنسان على حسب اعتقاده ومذهبه ، ثم ادعى حلول روح القدس فيه وتسمى بالإله ، وصارت له إلى أصحابه رقاع معنونة بهذه الألفاظ : من الهوَهوَ الأزلى الأول النور الساطع اللامع ، والأصل الأصلى وحجة الحجج ورب الأرباب ، ومنشىء السحاب ، ومشكاة النور ورب الطور ، والمتصور فى كل صورة إلى عبده فلان وكان أصحابه يفتتحون كتبهم إليه :

سبحانك يا ذات الذات ، ومنتهى غاية اللذات ، يا عظيم يا كبير ، أشهد أنك البارىء القديم المنير ، المتصور فى كل زمان وأوان وفى زماننا هذا فى صورة الحسين بن منصور . عبدك ومسكينك وفقيرك والمستجير بك والمنيب إليك . الراجى رحمتك يا علام الغيوب[1] .

كل هذه الأمور تجمعت على الحلاج فجىء به . وحوكم أمام جمع من الناس وسئل فى أمره الفقهاء فأفتوا بقتله بالإجماع فقتل عام ٣٠٩ هـ ٩٢٢ م وأحرق .

٣ — حيدر بن كاووس الأشينى

من أخطر الشخصيات السياسية الذين عالجوا قلب الحكم وتغيير الأوضاع كان قائدا المعتصم يظهر له الولاء ويبطن الشر ، ينمى إلى أصل فارسى ، من أهل أشروسنة شديد الحنق على العرب والإسلام ، كان يقول : إذا ظفرت بالعرب شدخت رءوس عظمائهم بالدبوس[2] جىء

---

(١) الآثار الباقية ص ٢١٢ وما بعدها .

(٢) المقريزى ج ٢ ص ١٨٠ .

به إلى المعتصم فحكم أمام جمع حافل وشهد عليه المازريان قائلا : إنك كنت تقول لنا إن هذا الدين دين الإسلام إن اتفقنا أنا وأنتم محونا أثره ، ونعود إلى دين آبائنا العجم ، وظهرت عليه أمور كثيرة وكشف أمره فحكم عليه بالموت وقد قال فيه أبو تمام قصيدته المشهورة التي منها :

مازال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الوارى

ويمكن أن يضاف إلى هذه الشخصيات الثلاثة شخصية أخرى ، من المفيد ذكرها لبيان وحدة الهدف وهي شخصية — يزيد بن أنيسة — أسس هذا فرقة سماها باسمه ونسبها إليه وادعى أن الله سيبعث رسولا من العجم وينزل عليه كتاباً جملة واحدة ينسخ به شريعة محمد صلى الله عليه وسلم .